أبو الطب الأمريكي

في سنة ١٨٤٥، هبط أمريكا مهاجر شاب، يختلف كثيرًا من حيث الثقافة والهدف عن المهاجرين الذين كانوا يتدفقون عليها من جميع الأنحاء في ذلك الحين، سعيًا وراء العمل والثراء.

كان هذا الفتى – وإسمه «ويليام دبرال مايو»– طبيبًا إنجليزيًا، أتم دراسته ومراته في أكبر المستشفيات بلندن وجلاسجو ومانشستر، وإكتسب خبرة ممتازة في الكيمياء من عمله سنوات مع الكيميائي الكبير «جون والتون». فلم تكن هجرته إلى العالم الجديد للبحث عن عمل، كما أنها لم تكن عن طمع في الغنى أو الشهرة، إذ دل تاريخ حياته فيما بعد على أنه من أشد الناس زهدًا فيهما، وإنما هاجر من إنجلترا ضيقًا وتبرمًا بإزدحامها الذي لا يتفق مع ما في فطرته من حب العزلة والهدوء، وسخطًا على ما كان يسودها من إستعلاء بعض الطبقات على بعض، الأمر الذي لم يكن ينسجم مع تواضعه الجم ورقة طبعه ودماثة خلقه وبغضه الشديد للكبرياء والمتكبرين!

وشاء القدر أن يستقر المقام بالطبيب الشاب في الولايات الغربية، وهي يومئذ لا تعرف من الأطباء غير جماعات من الدجالين الذين لا علم لهم ولا خبرة، وإنما كل همهم أن يغرروا بجماهير المرضى البسطاء لكي يبتزوا أموالهم، ويمتصوا دماءهم، معتمدين على ما يقوموا به لأنفسهم من دعايات كاذبة جوفاء!. وعلى هذا لم يرض لنفسه أن يكون زميلًا لأمثال

هؤلاء الدجالين، وآثر أن يترك لهم ميدان الطب حرصًا على كرامته التي يعتز بها، وضنا بالمهنة التي يجلها ويقدسها على الهبوط بها إلى الدرك الأسفل الذي يعملون فيه. وقضى زهاء ثلاث سنوات متنقلًا بين أعمال أخرى في مدن تلك الولايات وقراها، ثم إنتهى به المطاف إلى مدينة «لافييت» بولاية «إنديانا»..حيث أنشأ مصنعًا لحياكة الملابس، وإستطاع أن يحرز نجاحًا كبيرًا!

ومضت خمس سنوات، غلبه الحنين إلى الطب في نهايتها، فإذا به يضحي بمصنعه الناجح، لكي يدخل جامعة «ميسوري» في سنة **١٨٥٣** حيث حصل منها على درجة طبية جديدة، ثم يرحل ومعه زوجته إلى مقاطعة «مينسوتا» في الجانب الأقصى من الحدود الأمريكية، وهناك قضى بضعة أشهر في الطواف بالقرى البدائية المنعزلة والقفار المحيطة بها، لتفقد أحوال القبائل الهندية القاطنة هناك، ودراسة عاداتها وتقاليدها وكل شيء في حياتها.

وحينما نشبت الحرب الأهلية بعد ذلك، عين الدكتور مايو جراحًا في الجيش الإتحادي، وكان من نصيبه أن أقام طول فترة هذه الحرب بمدينة «روشستر» الصغيرة، ثم حببت إليه الحياة بها بعد إنتهاء الحرب، فإعتزم الإقامة الدائمة بها، وأنشأ لنفسه عيادة في منزل صغير بالشارع الثالث فيها، كما سكن وزوجته في المنزل نفسه، وجعل من إحدى غرف المنزل معملًا يجري فيه ما يعن له من تجارب وأبحاث.

نجح الدكتور مايو نجاحًا عظيمًا في عيادته الخاصة، وكان لمعرفته

السابقة بأهل المنطقة وحسن معاملته إياهم أثر كبير في هذا النجاح. على أن الجانب الأكبر من نجاحه يرجع ولا شك إلى عاملين مهمين آخرين: أحدهما إخلاصه وتفانيه في حب مهنته، والآخر حبه لأهل تلك المنطقة ورغبته الصادقة القوية في خدمتهم بخاصة وخدمة الأمريكيين مواطنيه الجدد بعامة!

وهكذا قسم الطبيب الشاب وقته بين العمل في عيادته ومعمله وبين المشاركة في النشاط الإجتماعي والسياسي في المنطقة والولاية كلها، ولم يكف مع هذا كله عن الإستزادة من معلوماته، بالمطالعة المنظمة، والقيام برحلات إستطلاعية في المناطق المجاورة، وفي الولايات الشرقية للمدارسة والمباحثة مع كبار الأطباء فيها.

ولم يمض قليل حتى لمع إسمه وبرزت شخصيته وصار موضع الحب والإجلال من الجميع، ولاسيما بعد أن تعددت الخدمات العامة التي قدمها للأهلين، كإبتكاره نظامًا للصحة العامة في المدينة، وسعيه في سبيل إنشاء مكتبة عامة بها، وفي سبيل توسيع مدرستها، فضلًا عن دعوته كثيرين من العلماء والأطباء الذين عرفهم في الولايات الشرقية وغيرها إلى زيارة المدينة وإلقاء محاضرات عامة بها.

وقد رزق بوسلدين: أولهما «وليم» الذي ولد في سنة ١٨٦١، والثاني «شارلي» الذي ولد في سنة ١٨٦٥، وكان طبيعيًا أن نشأ ولداه على حب مهنة الطب، والرغبة في أن يكونا طبيبين مثله. ولم يدخر هو جهدًا في تقوية هذه الرغبة وتنميتها، فكان يصطحبهما منذ طفولتهما إلى عيادته، وإلى

جولاته في المزارع القريبة حيث يشاهدان في إغتباط ما يقوم به من الفحص والعلاج. وما كادا يشبان عن الطوق حتى كان كل منهما يعرف الكثير من أسرار المهنة ويعرف جميع الأجهزة والأدوات التي يستعملها أبوه في العيادة والمعمل، لكثرة ما شاهداها، وساعدا والدهما في إستعماله إياها!

وواصل الطبيب العالم جهوده الطيبة في سبيل إعداد ولديه ومعاونتهما على التفوق في دراساتهما الجامعية والشخصية، وما تخرجا في سنة **١٨٨٣** حتى عادا إلى «روشستر» حيث إستأنفا العمل مع والدهما، لا مساعدين في هذه المرة بل طبيبين أصيلين، وسرعان ما أحرزا ثقة الأهلين.

كانت سنة **١٨٨٣** بداية تحول في تاريخ آل مايو، ففي هذه السنة التي بدأ فيها العمل المشترك للأطباء الثلاثة، الوالد وولديه، هبت عاصفة شديدة في اليوم الحادي والعشرين من شهر أغسطس، أتت في دقائق معدودات على جانب كبير من المدينة الصغيرة التي يعملون فيها، وكان ضحايا هذه الكارثة كثيرين جدًا، فشمر الأطباء الثلاثة عن سواعدهم وأخذوا يواصلون العمل لإسعاف الجرحى وعلاجهم في مستشفى مؤقت إتخذوه لذلك في قاعة للرقص بأحد المنازل التي تشملها كارثة العاصفة الهوجاء. وواجهتهم مشكلة كبرى هي مشكلة تمريض ذلك العدد الكبير من المصابين، ولكنهم سرعان ما تغلبوا على هذه المشكلة إذ إستطاعوا إقناع رئيسة دير القديس فرنسيس، القائم على مقربة من المدينة، بأن تمدهم بطائفة من راهبات الدير، ليقمن بمهمة التمريض!

ومضت أشهر، والعمل يجري بنجاح في المستشفى المؤقت الذي أقامه

آل مايو، ولم يكن إعجاب الناس بالتضامن التام بين الأطباء الثلاثة البروتستانيين وبين أولئك الممرضات من الراهبات الكاثوليكيات بأقل من إعجابهم بالهمة الصادقة التي بذلت في المستشفى وكان لها كل الفضل في تخفيف آثار النكبة الفادحة التي نزلت بالمنطقة، من جراء تلك العاصفة القاصفة!

وعرضت رئيسة الدير على آل مايو إستعدادها للإشتراك معهم في إنشاء مستشفى دائم في المدينة بإسم القديسة ماري، ليعالجوا فيه المرضى والجرحى من أهل المنطقة جميعًا بلا تفريق بين أديانهم وألوانهم وحالاتهم المالية، وتم الإتفاق على ذلك أخيرًا، وإستغرق إعداد المستشفى الجديد سنوات، تناوب الأطباء الثلاثة خلالها القيام برحلات لزيارة المعاهد والمستشفيات الكبيرة في الولايات الشرقية، للبحث و الدرس وإقتباس أحدث النظم وأحسنها.

وبدأ العمل في مستشفى القديسة ماري سنة ١٨٨٩، وأقبل المرضى عليه من أنحاء المنطقة وما يجاورها، ولم تمض سنتان حتى كان إسم «مايو» يتردد في جميع أنحاء أمريكا مشفوعًا بأكبر الإجلال والإعجاب، وبدأ الأطباء أنفسهم في الولايات الأخرى يبعثون إلى المستشفى بالمرضى الذين يحارون في تشخيص أمراضهم وعلاجها، وهناك يجد هؤلاء المرضى من العناية والرعاية، ما يلهج ألسنتهم بالدعاية الضخمة للمستشفى والقائمين بالعمل فيه!

وأخيرًا..رأى الدكتور وليام مايو أن ولديه النجيبين الشابين صارا

جديرين بأن يستقلا بإدارة المستشفى الناجح الكبير، فتركه لهما، وتفرغ للمهام السياسية والإجتماعية التي إضطلع بها بوصفه عضوًا في مجلس الشيوخ بالولاية وبقي كذلك حتى إعتزل العمل في المجلس في الرابعة والسبعين من عمره.

وكان أول ما صنعه الطبيبان الشقيقان بعد إستقلالهما بإدارة المستشفى، أن قررا تزويده بكل ما من شأنه أن يدعمه ويوسع نطاق الخدمات التي يؤديها، وعلى هذا الأساس المتين أخذا يضمان إليه كل نابه كفء من العلماء والأطباء والكيميائيين، ويزودانه بكل مستحدث من الأجهزة والآلات والأدوات!

وحرصا في الوقت نفسه على معاملة جميع المعاونين لهما أحسن المعاملة، بل حرصا على أن يكون عمل هؤلاء في المستشفى على أساس أنهم شركاء. وكان الدكتور هنري بالمر في مقدمة العلماء الأكفاء الذين إنضموا إلى المستشفى، فما لبث قليلًا حتى جعل من معامله أكبر مؤسسات علمية من نوعها، وصار في إستطاعتها أن تقدم مساعدات فنية لا يمكن تقدير قيمتها لعدد كبير من الأطباء والباحثين. وعلى مر الوقت تحول المستشفى من بضع غرف في الطابق الثاني من بناء المعهد الماسوني بالمدينة، إلى بناء مجمع ضخم يشغل مساحة كبيرة جدًا، وإلى جواره عشرات من الملحقات المنشأة على أحدث طراز، بين مصحات لإيواء المرضى، وأخرى للعناية بالناقهين، ومؤسسات للإستشفاء، وفنادق مختلفة لإقامة من شاء من النزلاء.

لم يكن النجاح العظيم الذي أحرزه الشقيقان مايو ليقعد بهما عن مواصلة الدرس والبحث، وقد زودهما ذلك بأصدقاء كثيرين من العلماء والأطباء في مختلف أنحاء أمريكا، كما بقيت صلاتهما وثيقة بكبار الأطباء الذين عرفوهما بالولايات الشرقية في مستهل حياتهما العملية، كالدكتور برايس فى فيلادلفيا، والدكتور هلستيد طبيب مؤسسة جون هوبكنس، وغيرهما من كبار الأطباء في نيويورك وبوسطن.

وكان لنجاحهما الباهر في كثير من الجراحات المبتكرة المعقدة صدى عميق في نفوس الأمريكيين جميعًا، حتى لقد راجت عن نجاحهما هذا حكايات كثيرة أشبه بالأساطير، وحدث يومًا أن أرسل الدكتور «ول» إلى صحيفة طبية في إحدى الولايات الشرقية بحثًا ضمنه طريقة إبتكرها لعلاج المرارة بالجراحة، وكانت هذه الجراحة من التعقيد بحيث لم يصدق نجاحها رئيس تحرير الصحيفة، فلم ينشر البحث الخاص بها، وأعاده إلى صاحبه بالبريد!